مجموعة الروائع الانسانية

الغزالي

المنقذ من الضلال

والموصل الى ذي العزة والجلال

ترجمه الى الفرنسية وقدم له وعلق عليه

فريد جبر

الطبعة الثانية

اللجنة اللبنانية لترجمة الروائع
بيروت
١٩٦٩

جميع الحقوق محفوظة
للجنة اللبنانية لترجمة الروائع

ص. ب. ١١٤٥ ، بيروت (لبنان)
١٩٦٩

اللجنة اللبنانية لترجمة الروائع

الدكتور ادمون رباط	رئيس
الاستاذ عبدالله المشنوق	نائب رئيس
الدكتور فؤاد افرام البستاني	امين صندوق
الدكتور جميل صليبا	

قرأ هذه الترجمة وفقًا لنظام اللجنة
ڤنسان مونتاي

فهرس

توطئة ٩

مدافع السفسطة ومجد العلوم ١٢

اصناف الطالبين ١٥

١ ــ علم الكلام: مقصوده وحاصله ١٦

٢ ــ الفلسفة ١٨

اصناف الفلاسفة ١٩

اقسام علومهم ٢٠

٣ ــ مذهب التعليم وغائلته ٢٨

٤ ــ طرق الصوفية ٣٥

حقيقة النبوّة واضطرار كافة الخلق اليها ٤١

سبب نشر العلم بعد الاعراض عنه ٤٥

توطئة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي يفتتح بحمده كل رسالة ومقالة، والصلاة على محمد (المصطفى) صاحب النبوة والرسالة، وعلى آله واصحابه الهادين من الضلالة.

اما بعد: فقد سألتني أيها الأخ في الدين، أن أبث إليك غاية العلوم وأسرارها، وغائلة المذاهب وأغوارها، وأحكي لك ما قاسيته في استخلاص الحق من بين اضطراب الفرق، مع تباين المسالك والطرق، وما استجرأت عليه من الارتفاع عن حضيض التقليد، إلى يفاع الاستبصار، وما استفدته أولاً من علم الكلام، وما اجتويته ثانياً من طرق اهل التعليم القاصرين لدرك الحق على تقليد الإمام، وما ازدريته ثالثاً من طرق التفلسف، وما ارتضيته آخراً من طريقة التصوف وما انجلى لي في تضاعيف تفتيشي عن أقاويل الخلق، من لباب الحق، وما صرفني عن نشر العلم ببغداد، مع كثرة الطلبة، وما دعاني الى معاودته بنيسابور بعد طول المدة، فابتدرت لإجابتك إلى

---

* ملاحظة: اعتمدنا هنا الطبعة الخامسة لكتاب «المنقذ من الضلال» المنشورة في دمشق عام ١٩٥٦ والتي حقق في نصها وقدم له الدكتور جميل صليبا والدكتور كامل عياد. اللجنة

مطلبك ، بعد الوقوف على صدق رغبتك ، وقلت مستعيناً بالله ومتوكلاً عليه ، ومستوفقاً منه ، وملتجئاً إليه :

اعلموا — أحسن الله (تعالى) إرشادكم ، وألآنَ للحق قيادكم — ان اختلاف الخلق في الاديان والملل ، ثم اختلاف الأئمة في المذاهب ، على كثرة الفِرَق وتباين الطرق ، بحر عميق غرق فيه الأكثرون وما نجا منه إلا الأقلون . وكل فريق يزعم أنه الناجي ، و « كلُ حزبٍ بِما لدَيْهِمْ فرحون » وهو الذي وعدنا به سيد المرسلين ، صلوات الله عليه ، وهو الصادق الصدوق حيث قال : « ستَفْتَرِقُ أمتي ثلاثاً وسبعين فِرْقةً ، الناجية منها واحدةٌ » فقد كاد ما وعد ان يكون .

ولم أزل في عنفوان شبابي (وريعان عمري) ، منذ راهقت البلوغ قبل بلوغ العشرين إلى الآن ، وقد اناف السن على الخمسين ، أقتحم لجّة هذا البحر العميق ، وأخوض غَمرَتهُ خوض الجسور ، لا خوْضَ الجبان الحذور ، واتوغل في كل مظلمة ، وأتهجم على كل مشكلة ، واتقحم كل ورطة ، واتفحص عن عقيدة كل فرقة ، وأستكشف أسرار مذهب كل طائفة ، لأميز بين مُحق ومبطل ، ومتسنن ومبتدع ، لا أغادر باطنياً إلا وأحب ان أطلع على باطنيته ، ولا ظاهرياً إلا وأريد أن أعلم حاصل ظاهريته ، ولا فلسفياً إلا واقصد الوقوف على كنه فلسفته ، ولا متكلماً إلا وأجتهد في الاطلاع على غاية كلامه ومجادلته ، ولا صوفياً إلا واحرص على العثور على سر صفوته ، ولا متعبداً إلا واترصد ما يرجع إليه حاصل عبادته ، ولا زنديقاً معطلاً إلا واتجسس وراءه للتنبه لأسباب جرأته في تعطيله وزندقته .

وقد كان التعطش إلى دَرْك حقائق الامور دأبي وديدني من أول امري وريعان عمري ، غريزةً وفطرةً من الله وُضعتا في جبلتي ، لا باختياري وحيلتي ، حتى انحلت عني رابطة التقليد ، وانكسرت علي العقائد الموروثة ،

على قرب عهدِ سنِ الصبا ، اذ رأيت صبيان النصارى لا يكون لهم نشوءٌ إلا على التنصر ، وصبيان اليهود لا نشوءَ لهم إلا على التهود ، وصبيان المسلمين لا نشوءَ لهم إلا على الاسلام . وسمعت الحديث المروي عن رسول الله ﷺ حيث قال : « كل مولودٍ يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه » ، فتحرك باطني الى (طلب) حقيقة الفطرة الأصلية ، وحقيقة العقائد العارضة بتقليد الوالدين والأستاذين ، والتمييز بين هذه التقليدات ، وأوائلها تلقينات وفي تمييز الحق منها عن الباطل اختلافات . فقلت في نفسي : اولاً ، إنما مطلوبي العلم بحقائق الامور ، فلا بُد من طلب حقيقة العلم ما هي ؟ فظهر لي ان العلم اليقيني هو الذي ينكشف فيه المعلوم انكشافاً لا يبقى معه ريب ، ولا يقارنه إمكان الغلط والوهم ، ولا يتسع القلب لتقدير ذلك ، بل الامان من الخطإ ينبغي ان يكون مقارناً لليقين مقارنة لو تحدى باظهار بطلانه مثلاً من يقلب الحجر ذهباً والعصا ثعباناً ، لم يورث ذلك شكاً وإنكاراً ؛ فإني اذا علمت أن العشرة أكثر من الثلاثة ، فلو قال لي قائل : لا ، بل الثلاثة أكثر < من العشرة > بدليل أني أقلب هذه العصا ثعباناً ، وقلبها ، وشاهدت ذلك منه ، لم أشك بسببه في معرفتي ، ولم يحصل لي منه إلا التعجب من كيفية قدرته عليه ! فأما الشك فيما علمته ، فلا .

ثم علمت ان كل ما لا أعلمه على هذا الوجه ولا أتيقنه هذا النوع من اليقين ، فهو علم لا ثقة به ولا أمان معه ، وكل علم لا أمان معه فليس بعلم يقيني .

مَدَاخِلُ السَفسَطة وجحد العُلوم

ثم فتشت عن علومي فوجدت نفسي عاطلاً من علم موصوف بهذه الصفة إلا في الحسيات والضروريات . فقلت : الآن بعد حصول اليأس ، لا مطمع في اقتباس المشكلات إلا من الجليات ، وهي الحسيات والضروريات . فلا بد من إحكامها أولاً لأتيقن أن ثقتي بالمحسوسات ، وأماني من الغلط في الضروريات، من جنس أماني الذي كان من قبلُ في التقليديات ، ومن جنس أمان أكثر الخلق في النظريات ، أم هو أمان محققٌ لا غدر فيه ولا غائلة له ؟ فأقبلت بجد بليغ أتأمل في المحسوسات والضروريات ،وانظر هل يمكنني أن أشكك نفسي فيها ؛ فانتهى بي طول التشكك إلى أن لم تسمح نفسي بتسليم الامـــان في المحسوسات أيضاً ، وأخذت تتسع للشك فيها وتقول : من اين الثقة بالمحسوسات وأقواها حاسة البصر ، وهي تنظر الى الظل فتراه واقفاً غير متحرك ، وتحكم بنفي الحركة ؟ ثم ، بالتجربة والمشاهدة ، بعد ساعة ، تعرف انه متحرك وأنه لم يتحرك دفعة < واحدة > بغتة ، بل على التدريج ذرة ذرة حتى لم يكن له حالة وقوف . وتنظر الى الكوكب فتراه صغيراً في مقدار دينار ، ثم الادلة الهندسية تدل على انه اكبر من الارض في المقدار . هذا وأمثاله من المحسوسات يحكم فيها حاكم الحس باحكامه ، ويكذبه حاكم العقل ويخونه تكذيباً لا سبيل الى مدافعته . فقلت : قد بطلت الثقة بالمحسوسات أيضاً فلعله لا ثقة الا بالعقليات التي هي من الاوليات ، كقولنا : العشرة اكثر من الثلاثة ، والنفي والاثبات لا يجتمعان في الشيء الواحد ، والشيء الواحد لا يكون حادثاً قديماً ، موجوداً معدوماً ، واجباً محالاً . فقالت المحسوسات : بم تأمن أن

تكون ثقتك بالعقليات كثقتك بالمحسوسات ، وقد كنت واثقاً بي ، فجاء حاكم العقل فكذبني ، ولولا حاكم العقل لكنت تستمر على تصديقي؟ فلعل وراء ادراك العقل حاكماً آخر ، اذا تجلى ، كذب العقل في حكمه ، كما تجلى حاكم العقل فكذب الحس في حكمه . وعدم تجلي ذلك الادراك ، لا يدل على استحالته . فتوقفت النفس في جواب ذلك قليلاً ، وايدت اشكالها بالمنام ، وقالت : اما تراك تعتقد في النوم أموراً ، وتتخيل أحوالاً ، وتعتقد لها ثباتاً واستقراراً، ولا تشك في تلك الحالة فيها ، ثم تستيقظ فتعلم انه لم يكن لجميع متخيلاتك ومعتقداتك أصل وطائل ؟ فبم تأمن ان يكون جميع ما تعتقده في يقظتك بحس او عقل هو حق بالاضافة الى حالتك [التي انت فيها] لكن يمكن ان تطرأ عليك حالة تكون نسبتها الى يقظتك ، كنسبة يقظتك الى منامك ، وتكون يقظتك نوماً بالاضافة اليها ! فاذا وردتَ تلك الحالة تيقنت ان جميع ما توهمت بعقلك خيالات لا حاصل لها ، ولعل تلك الحالة ما يدعيه **الصوفية** انها حالتهم : اذ يزعمون انهم يشاهدون في أحوالهم التي (لهم) اذا غاصوا في انفسهم ، وغابوا عن حواسهم ، احوالاً لا توافق هذه المعقولات . ولعل تلك الحالة هي الموت ، اذ قال رسول الله ﷺ : « الناس نيام فاذا ماتوا انتبهوا » فلعل الحياة الدنيا نوم بالاضافة الى الآخرة . فاذا مات ظهرت له الاشياء على خلاف ما يشاهده الآن ، ويقال له عند ذلك : « فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد » . فلما خطرت لي هذه الخواطر ، (و)انقدحت في النفس ، حاولت لذلك علاجاً فلم يتيسر اذ لم يكن دفعه الا بالدليل ، ولم يمكن نصب دليل الا من تركيب العلوم الاولية. فاذا لم تكن مسلمة لم يمكن ترتيب الدليل . فأعضل هذا الداء ، ودام قريباً من شهرين انا فيهما على مذهب السَفْسَطة بحكم الحال ، لا بحكم النطق والمقال ، حتى شفى الله تعالى من ذلك المرض ، وعادت النفس الى الصحة والاعتدال ، ورجعت الضروريات العقلية مقبولة موثوقاً بها على امن ويقين ، ولم يكن ذلك بنظم دليل وترتيب كلام ، بل بنور قذفه الله تعالى في الصدر ، وذلك

النور هو مفتاح اكثر المعارف . فمن ظن ان الكشف موقوف على الادلة المحررة فقد ضيق رحمة الله [تعالى] الواسعة ؛ ولما سئل رسول الله ﷺ عن «**الشرح**» ومعناه في قوله تعالى: « فمن يرد الله ان يهديه يشرح صدره للاسلام . » قال : «هو نور يقذفه الله تعالى في القلب». فقيل : « وما علامته ؟ » فقال : « التجافي عن دار الغرور ، والانابة الى دار الخلود . » وهو الذي قال ﷺ فيه : « ان الله تعالى خلق الخلق في ظلمة ثم رش عليهم من نوره . » فمن ذلك النور ينبغي ان يطلب الكشف ، وذلك النور ينبجس من الجود الإلهي في بعض الاحايين ، ويجب الترصد له كما قال عليه السلام : « ان لربكم في ايام دهركم نفحات الا فتعرضوا لها » .

والمقصود من هذه الحكايات أن يعمل كمال الجد في الطلب ، حتى ينتهي الى طلب ما لا يطلب . فان الاوليات ليست مطلوبة ، فانها حاضرة . والحاضر اذا طلب فقد واختفى . ومن طلب ما لا يطلب ، فلا يتهم بالتقصير في طلب ما يطلب .

أصناف الطالبين

ولما شفاني الله تعالى من هذا المرض بفضله وسعة جوده ، انحصرت أصناف الطالبين عندي في أربع فرق :

١ — **المتكلمون** : وهم يدعون أنهم أهل الرأي والنظر ؛

٢ — **الباطنية** : وهم يزعمون أنهم أصحاب التعليم والمخصوصون بالاقتباس من الإمام المعصوم ؛

٣ — **الفلاسفة** : وهم يزعمون أنهم أهل المنطق والبرهان ؛

٤ — **الصوفية**: وهم يدعون أنهم خواص الحضرة وأهل المشاهدة والمكاشفة .

فقلت في نفسي : الحق لا يعدو هذه الأصناف الاربعة ، فهؤلاء هم السالكون سبل طلب الحق ، فإن شذ الحق عنهم ، فلا يبقى في درك الحق مطمع ، إذ لا مطمع في الرجوع إلى التقليد بعد مفارقته ؛ و (من) شرط المقلد أن لا يعلم أنه مقلد ، فإذا علم ذلك انكسرت زجاجة تقليده ؛ وهو شعب لا يرأب ، وشعث لا يلم بالتلفيق والتأليف ، إلا أن يذاب بالنار ، ويستأنف له صنعة أخرى مستجدة .

فابتدرت لسلوك هذه الطرق ، واستقصاء ما عند هذه الفرق ، مبتدئاً بعلم الكلام ، ومثنياً بطريق الفلسفة ، ومثلثاً بتعليم الباطنية ، ومربعاً بطريق الصوفية .

* * *